بسم الله الرحمن الرحيم

بُطُولَاتٌ لَا تُنْسَىٰ ١١ شَعْبَانَ ١٤٤٧هـ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مَفْطُورًا عَلَىٰ حُبِّ وَطَنِهِ وَالْأُنْسِ بِهِ، فَهُوَ رَاحَةُ قَلْبِهِ، وَطُمَأْنِينَةُ نَفْسِهِ، وَمَوْئِلُ الْأَحِبَّةِ وَالْخِلَّانِ، وَالْأَمَانُ وَالذِّكْرَيَاتُ، وَحُبُّ الْوَطَنِ شُعُورٌ تَخْفِقُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَشَوْقٌ تَتَحَدَّثُ بِهِ الْأَفْئِدَةُ، وَحَنِينٌ يَكْمُنُ فِي الْوِجْدَانِ، وَمَوَدَّةٌ وَأُلْفَةٌ تَتَزَيَّنُ بِهَا كِرَامُ النُّفُوسِ وَأَهْلُ الْمُرُوءَاتِ وَالشِّيَمِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ حُبَّ الْأَوْطَانِ خَالَطَ مَشَاعِرَ الْأَنْبِيَاءِ، وَوُجِدَ فِي قُلُوبِ الصَّحَابَةِ وَالْأَصْفِيَاءِ، وَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ أَنَّ حُبَّ الْأَوْطَانِ تَغَلْغَلَ فِي دَوَاخِلِ الْحِيتَانِ تَحْتَ الْمَاءِ، وَرَفْرَفَتْ لَهُ أَجْنِحَةُ الطَّيْرِ فِي السَّمَاءِ.

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ رَبَطَ الْقُرْآنُ بَيْنَ حُبِّ الْوَطَنِ وَبَيْنَ حُبِّ النَّفْسِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

وَقَدْ رَبَطَ اللهُ ﷻ بَيْنَ الدِّينِ وَالْوَطَنِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾.

وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمَّا تَرَكَ وَطَنَهُ وَقَفَ يُخَاطِبُهُ، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَكَّةَ: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ». فَوَاسَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ، فَقَالَ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مِنْ شُكْرِ اللهِ عَلَىٰ نِعْمَةِ الْوَطَنِ تَحْقِيقَ عَقِيدَةِ الْمُسْلِمِ فِي الْوَلَاءِ لَهُ وَمَحَبَّتِهِ، وَبَذْلِ الْغَالِي وَالنَّفِيسِ دُونَهُ؛ الْوَطَنُ الْآمِنُ الْمُسْتَقِرُّ نِعْمَةٌ وَمِنَّةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، تَتَطَلَّبُ شُكْرًا وَعِرْفَانًا تُتَرْجِمُهُ الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْوَطَنَ الْآمِنَ يَقُومُ عَلَىٰ الِائْتِلَافِ وَالِاجْتِمَاعِ، وَانْتِظَامِ النَّاسِ تَحْتَ وِلَايَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَدْ عُلِمَ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ لَا دِينَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ، وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَامَةٍ، وَلَا إِمَامَةَ إِلَّا بِسَمْعٍ وَطَاعَةٍ؛ لِأَنَّ مَآلَاتِ الِاجْتِمَاعِ، وَنَبْذَ الِافْتِرَاقِ، فِيهَا قِيَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَانْتِظَامُ الْحَيَاةِ، وَلَا يَتَأَتَّىٰ ذَلِكَ إِلَّا بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِوَلِيِّ الْأَمْرِ فِي الْمَعْرُوفِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، وَقَالَ ﷻ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الِانْتِمَاءَ لِلْوَطَنِ بُرْهَانُهُ الْحِرْصُ عَلَىٰ سَلَامَتِهِ، وَصَوْنُ مُكَوِّنَاتِهِ، وَاحْتِرَامُ أَفْرَادِهِ، وَتَقْدِيرُ عُلَمَائِهِ، وَالْحِفَاظُ عَلَىٰ مَوَارِدِ الْوَطَنِ وَمُكْتَسَبَاتِهِ، وَعَوَامِلِ بِنَائِهِ وَرَخَائِهِ؛ فَالْوَطَنُ الْآمِنُ يُبْنَىٰ عَلَىٰ خُلُقِ التَّعَاوُنِ، وَالْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَىٰ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ شُكْرَ نِعْمَةِ الْوَطَنِ الْآمِنِ يَكُونُ بِرَفْعِ رَايَتِهِ، وَعَدَمِ خِيَانَتِهِ، وَحِرَاسَتِهِ مِنْ دُعَاةِ الْفَسَادِ وَالْفِتَنِ وَالْخَرَابِ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. وَكَمَا قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ:

وَلِـــي وَطَـــنٌ آلَيْـــتُ أَلَّا أَبِيعَـــهُ ... وَأَلَّا أَرَىٰ غَيْـــرِي لَـــهُ الـــدَّهْرَ مَالِكَـــا

عَهْـــدتُّ بِـــهِ شَـــرْخَ الشَّـــبَابِ وَنِعْمَـــةً ... كَنِعْمَـــةِ قَـــوْمٍ أَصْـــبَحُوا فِـــي ظِلَالِكَـــا

فَقَـــدْ أَلِفَتْـــهُ الـــنَّفْسُ حَتَّـــىٰ كَأَنَّـــهُ ... لَهَـــا جَسَـــدٌ إِنْ بَـــانَ غُـــودِرْتُ هَالِكَـــا

وَحَبَّـــبَ أَوْطَـــانَ الرِّجَـــالِ إِلَـــيْهِمُ ... مَـــآرِبُ قَضَّـــاهَا الشَّـــبَابُ هُنَالِكَـــا

إِذَا ذَكَـــرُوا أَوْطَـــانَهُم ذَكَّـــرَتْهُمُ ... عُهُـــودَ الصِّـــبَا فِيهَـــا فَحَنُّـــوا لِـــذَلِكَا

وَقَـــدْ ضَـــامَنِي فِيـــهِ لَئِـــيمٌ وَعَزَّنِـــي ... وَهَـــا أَنَـــا مِنْـــهُ مُعْصِـــمٌ بِحِبَالِكَـــا

إِنَّ مِنْ حَقِّ وَطَنِنَا عَلَيْنَا أَنْ نَدْعُوَ لَهُ بِالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ وَالرَّخَاءِ وَالِاسْتِقْرَارِ، فَقَدْ دَعَا الْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام

لِأَوْطَانِهِمْ، مَعَ مَا لَاقَوْهُ مِنْ أَهْلِهَا مِنَ الْأَذَىٰ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاءُوا بِهِ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَمِثْلِهِ مَعَهُ»، قَالَ: ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ لَهُ فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ.

عِبَادَ اللهِ: فِي ظِلِّ مَا نَرَاهُ مِنْ مُجْتَمَعَاتٍ وَدُوَلٍ صَارَ أَمْنُهَا مَهْزُوزًا، وَحِمَاهَا مَسْلُوبًا، وَالْخَوْفُ فِي قُرَاهَا مَمْدُودًا؛ بِسَبَبِ مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللهِ وَالْكُفْرِ بِالنِّعَمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾. وَالسَّعِيدُ مَنِ اعْتَبَرَ بِغَيْرِهِ، فَعَرَفَ قَدْرَ هَذِهِ النِّعَمِ، وَتَجَنَّبَ الْفِتَنَ وَالْمِحَنَ، وَأَخَذَ الدُّرُوسَ وَالْعِبَرَ، فَالْوَطَنُ الْآمِنُ الْمُزْدَهِرُ نِعْمَةٌ لَا تُضَاهَىٰ، وَكَنْزٌ ثَمِينٌ يَبْحَثُ عَنْهُ الْمَلَايِينُ، وَمَنْ رُزِقَ هَذِهِ النِّعْمَةَ فَقَدْ رُزِقَ خَيْرًا كَثِيرًا.

إِنَّ فِي شُكْرِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكُمْ زِيَادَتَهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْحِفَاظِ عَلَى الْأَوْطَانِ تَحْقِيقَ الْإِيمَانِ بِاللهِ ﷻ، وَالْعَمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَالْبُعْدَ عَنِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

لَقَدْ وَعَدَ اللهُ الْمُجْتَمَعَاتِ الْمُؤْمِنَةَ بِالرِّزْقِ الطَّيِّبِ الْوَفِيرِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾.

إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ هَلَاكِ الْأُمَمِ ظُهُورَ الْمَعَاصِي وَانْتِشَارَهَا فِي الْمُجْتَمَعِ، مَعَ سُكُوتِ النَّاسِ عَنْ تَغْيِيرِهَا؛ لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا أُعْلِنَتْ دَبَّ بَلَاؤُهَا إِلَىٰ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَلَمْ يَبْقَ وَبَالُهَا مُقْتَصِرًا عَلَىٰ مُرْتَكِبِهَا. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، وَاتِّقَاءُ الْفِتْنَةِ يَكُونُ بِالْكَفِّ عَنِ الذُّنُوبِ، وَالْأَخْذِ عَلَىٰ يَدِ الْمُجَاهِرِينَ بِالْمَعَاصِي. قَالَ تَعَالَي: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، فَالسُّكُوتُ عَنِ الْمَعَاصِي مِنْ مُوجِبَاتِ الْعِقَابِ وَالْهَلَاكِ؛ لِأَنَّ السُّكُوتَ عَنْهَا يُغْرِي أَصْحَابَهَا عَلَىٰ التَّمَادِي فِيهَا، وَاسْتِفْحَالِ أَمْرِهَا وَانْتِشَارِهَا، وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ الْعِقَابِ الْعَامِّ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَزِعًا مُحْمَرًّا وَجْهُهُ، يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»، وَأَخْرَجَ ابْنُ مَاجَهْ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّىٰ يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ».